الفصل الرابع

الشعر والشعراء في ظلال الجاهلية

كان الشعر في الجاهلية ديوان العرب، وكان فناً جميلاً يصوّر آمالَهم وآلامَهم وعواطفهم ومشاعرهم ومشاهد الوجود في حياتهم، وكان سجلاً لمفاخرهم وأحسابهم وأنسابهم ووقائعهم وأيامهم وآثارهم، وذكرياتهم ومظاهر بيئتهم. وكان لقوته الفنية سحر وروعة وشدّةُ تأثيرٍ في النفوس، إذ إنه صوت القبيلة ولسان القوم، والذائدُ الحامي الذمار والمدافع عن الأحساب والأنساب والشرف، والناطق بالحجة، والداعي إلى الخير.

والعرب أمة صناعتُها الكلام، ومفخرتها البيان، وهم أهل لَسَنٍ وفصاحة، يزدهيهم القولُ وتأخذُ بألبابهم البلاغةُ ، وقد أُثرَ لهم من جوامع الكلم ،ونوابغ الحكم، وروائع الأساليب، ما يُعَدُّ على وجه الزمان من مآثرهم الخالدة، ومناقبهم الباقية، وقد كان أهل الحجاز من بينهم خاصّة من أبلغ العرب لساناً،وأفصحهم بياناً ، اجتمع لهم من الخطابة والفصاحة، والبيان العجيب، والقول المصيب، والكلام الغريب،والمنطق الساحر، والشعر الأخّاذ، ما روته أسفار الأدب، وازدانت به لغة العرب.

يقول ابن خَلْدُون في مقدمته: "واعلم أنّ فنَّ الشعر من بين الكلام كان شريفاً عند العرب، ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم، وشاهد صوابهم وخطئهم،وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم، وكانت مَلَكَتُه مستحكمة فيهم شأن الملكات كُلِّها والمَلَكاتُ اللسانية كلّها إنما تُكتَسَبُ بالصناعة والارتياض في كلامهم..."(١).

وللشعر عند العرب مكانة رفيعة ليست عند الشعوب الأخرى التي اتسعت أمامها مناحي المجد ووسائل الحياة، فلا تزال مصادر الأدب والشعر الجاهلي صورة ناطقة ببلاغتهم وفصاحتهم، وشدّة تأثيرهم،وقوة بلاغتهم، فقد كان الشعر قوة فعالة في الجاهلية له تأثيره في نفوس العرب، وسلطانه في حياتهم، وقَدْرُه وخطره فيما بينهم، يمدح الخامل فيرفع ذكره، ويذمّ الشريفَ فيقلِّل قَدْرَه، وينوِّه بشأن القبيلة ، ويُزْرِي بأعدائها وخصومها، ويشفع فتُقبل شفاعتُه، ولذلك كانوا يحفظونه ويروونه وينشدونه في كلّ مكان.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٥٧٠.

ولم يترك العرب شيئاً مما وقعت عليه أعينهم أو سمعته آذانهم، أو اعتقدوه في نفوسهم إلا نظموه شعراً فنياً،حتى إننا نرى مجموع أشعارهم ديواناً فيه صورة صادقة لأخلاقهم وآدابهم وأيامهم، وما يستحسنون ويستهجنون، ولذلك قالوا : كان الشعر ديوان العرب ومَعْدِنَ حكمتها وكنزَ أدبها.

وكان للشعراء عند العرب منزلةٌ سامية جداً ، وكانت لهم أسمى مكانة في نفوس النّاس، فالشعراء في قبائلهم لسان حالهم، والمذيعون لأخبارهم، والمسجلون لأفضالهم وأمجادهم، لذلك احتفلوا بهم حتى إنه إذا ظهر في القبيلة شاعر مجيد أقبلتْ إليها وفود القبائل الأخرى للتهنئة،وبدأت قبيلته تقيم الأفراح وتنحر الذبائح، وتقدِّم الأطعمة للناس، وتخرج نساء القبيلة يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس، إذ كان الشاعر يدافع عن القبيلة بشعره ولسانه أكثر مما يدافع الفارس عنها بسيفه وحرابه، كما كان هو الذي يسجل الأحداثَ والوقائع،ويردّ على شعراء القبائل الأخرى إذا تعرضوا لقبيلته بما لا تحبّ.

يقول ابن رشيق : "وكانت القبيلة من العرب إذا نَبَغَ فيها شاعرٌ أتت القبائل فهنأتها،وصنعت الأطعمة،واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس ويتباشر الرجال والولدان، لأنه حمايةٌ لأعراضهم، وذبٌّ عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم. وكانوا لا يُهَنِّئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تُنْتَج[1].

وكانوا لفرط كَلَفهم بالشعر، وإعجابهم بالشعراء يعتقدون أنّ لكلّ شاعرٍ شيطاناً يلهمه الشعر والخيال، وهذا ناتج عن اعتقادهم بالإلهام،فلا يجعلون الشعر جهداً إنسانياً خالصاً، وإنما يردّونه إلى قوة خارقة خارجة عن الشعراء أنفسهم، وهي كما تصور العرب قوة الشياطين أو الجنّ، وقد شاع ذلك عندهم، حتى افتخر كل شاعر بشيطانه،إذ كان لكل شاعر شيطان أو جني يقول الشعر على لسانه،ويُروى من ذلك قول بعضهم:

إنّي وإنْ كُنتُ صغيرَ السنِّ ... وكان في العين نُبوّاً عَنِّي

فإن شيطاني أميرُ الجِنِّ ... يذهُب بِي في الشعرِ كلَّ فَنِّ [2]

---

(١) العمدة لابن رشيق جـ ١ ص٦٥.

(٢) بلوغ الأرب للألوسي جـ ٢ ص٣٦٥.

وتوسعوا في تلك الخرافة حتى إنهم زعموا أن لكل شاعر شيطاناً إما أنثى وإما ذكراً يقول أبو النجم:

إنّي وكلّ شاعرٍ من البَشَر شيطانُهُ أُنثى وشيطاني ذَكَر (١)

وروي أنهم سموا شياطين الشعراء بأسماء معروفة فمن ذلك لافظ شيطان امرئ القيس وهبيد شيطان عَبيد بن الأبرص، وهاذر شيطان النابغة الذبياني،ومسحل شيطان الأعشى، وروى أن الأعشى قال في شيطانه هذا:

دعوتُ خليلي مسحلاً ودعوا لَهُ جُهنام جَدْعاً للهجينِ المذمَّم (٢)

ولا شك أنَ كلّ ذلك ناتج عن تصورهم للجنّ، واعتقادهم أنَ لها مقدرةً يعجزُ عنها البشر، فحينما رأوا الشاعر إنساناً يختلف في أطواره عن سائر النّاس، ويجول بفكره في كلّ ناحية لم يعتادوا الخوض فيها، وحين رأوا لكلامه فعلَ الخمر وتأثير السحر، وأنه إذا شاء قَبَّحَ الحسنَ وحسَّن القبيحَ،وأنه يستطيع أن يلهب الصدور، ثمّ إذا شاء أطفأ النارَ التي ألهبها،إلى غير ذلك من الأمور التي كانت تأخذ بلبهم،وتنال إعجابهم من الشاعر، فعند ذلك توهّموا أن الشيطان هو الذي يلهم الشاعر، ويَنْفث فيه، ومن ثم اعتقدوا أنّ لكلّ شاعرٍ شيطاناً. ولما جاء الإسلام حارب هذه الأوهامَ وأمر المسلمَ أن يستمد عونَه من الله وحدَهُ.

وكان لكلّ قبيلة شاعر ـ أو أكثر ـ يناضل عن أحسابها، ويشيد بمفاخرها، ويذود عن حياضها، وكان الشاعر يتمتع بمكانة ممتازة بين قومه أَهَّلَتْهُ أن يمثل قبيلته، وأن يؤدي أدواراً سياسية أحياناً، كأن يكون سفيراً لقومه عند الأمراء،أو يتنقل بين القبائل يتكلم باسمها، ويطالب بحقّها، ومن المحقّق أن الشاعر الجاهلي لعب(٣) دوراً مهمّاً في المجتمع الجاهلي، فقد كان سفير قومه عند الملوك والرؤساء على نحو ما نعرف من سفارات النابغة الذبياني لقومه عند المناذرة والغساسنة، وكان وزيرهم المتنقل في القبائل، وشفيعهم في فكِّ أسراهم، وما أكثر ما استشفع الشاعر لأسرى قبيلته على نحو ما نعرف عن استشفاعَ عَلْقَمَةَ بن عَبْدَة لأخيه شَأْسٍ ولسائر الأسرى من قومه عند

---

(١) الحيوان للجاحظ جـ ٦ ص٢٢٩.

(٢) بلوغ الأرب للألوسي جـ ٢ ص٣٦٦.

(٣) كذا ورد في الكتاب، وهو خطأ -والصحيح: أدى دوراً- كما عبرنا آنفاً.

الحارث بن أبي شَمِّر الغساني. وعلى نحو ما نعرف من استشفاع حاتم الطائي لقيس ابن جَحْدَرٍ جَدّ الطِّرِمّاح بن حكيم عند عَمرو بن هند.

وكان الشاعر يحذر قومه ويعظهم ويرشدهم، إذا انحرفوا عن جادة القصد، أو جاروا على إخوانهم، أو حاولوا الخروج من حلف، كما كان يخوف أعداء قومه ويهددهم ويتوعدهم بسوء العاقبة إذا هم حاولوا غزوهم. وإلى جانب ذلك تمتّع الشاعر بمكانة ممتازة، إذ حرَص الأشراف وغير الأشراف على إرضائه أملاً في مدْحَةٍ ترفعهم، وخوفاً من هجائه اللاذع المقذع الذي تسير به الركبان في كل مَكان"(١).

والشعراء المعروفون بالشعر في قبائلهم وعشائرهم في الجاهلية أكثر من أن يحيط بهم باحث، فقد كانوا من الكثرة بمكان،والحقّ أنه سقط من ذاكرة الرواة أسماء كثيرين منهم لم يسجلوهم، يقول ابن قتيبة: "والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم في الجاهلية والإسلام، أكثر من أن يحيط بهم محيط،أو يقف من وراء عددهم واقف، ولو أنفد عمره في التنقير عنهم، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال، ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلةٍ حتى لم يفُتْه من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه، ولا قصيدة إلا رواها"(٢).

ويرى كثير من العلماء أن الشعر كان في ربيعةَ، فظهر في قبائلها،وعلى ألسنة شعرائها،ثم انتقل إلى قيس من مضرَ، ثم استقر في تميم ومنهم أوس بن حَجَر، يقول ابن سلاّم: "وكان شعراء الجاهلية في ربيعةَ: أوّلُهم المُهَلْهِلُ والمرقِّشان الأكبر والأصغر وسعدُ بن مالك، وطَرَفةُ بن العبد، وعمرو بن قَميئَةَ، والحارث بن حلِّزَة والمتَلَمِّسُ والأعشى والمُسَيَّبُ بن عَلَسٍ، ثم تحول في قيس فمنهم: النابغةُ الذبيانيُّ ـ وهم يَعُدُّونَ زهيرَ بنَ أبي سُلمى من عبد الله بن غطفَان وابنه كعباً ـ ولَبيدٌ، والنابغة الجعديُّ، والحطيئة، والشمَّاخُ ومُزَرِّدٌ وخِداشُ بن زُهَير، ثم آل ذلك إلى تميم،فلم يزل فيهم إلى اليوم"(٣).

---

(١) مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي د. حسين عطوان ص٢٣١.

(٢) مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٦٠.

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ص١٥.

وذهب الدكتور طه حسين في الأدب الجاهلي إلى عكس ذلك، فرأى أن الشعر كان في مضر ثم انتقل إلى ربيعةَ فاليمن ثم إلى شعراء الموالي[1].

وهذا بناء على نظريته في انتحال الشعر، وهو رأي لا أساسَ له من الصحة أو الواقع أو التاريخ.

والحقّ أن الشعر والشعراء كانا في القبائل اليمنية ومنهم امرؤ القيس وسواه، ثم انتقل بعد ذلك إلى ربيعة، وهي قبائل كثيرة منها: بكر وتغلب وعبد القيس والنمر ابن قاسط ويشكر وشيبان وذُهَل وسَدُوس، وكانوا قديماً يقيمون في اليمن ثم رحلوا منها إلى نجد، وهذا يفسر سرَّ وراثتهم الشعر عن اليمن، وقد ظهر منهم في نجد شعراء كثيرون: ومنهم المُهَلْهِلُ والمرقِّشان وطَرَفَةُ والمُتَلَمِّس وعمر بن قَميئَة وسعد بن مالك والمسيَّب والأعشى والحارث بن حلِّزَة وعمرو بن كُلثوم. ثم تحول الشعر في قيس من مضر، وبطون قيس كثيرة منها: عبس وذبيان وغطفَان وسُلَيم وهوازن وعَدْوان وثقيف وعامر بن صعصعة وعقيل وقُشَير وجَعْدَة ونمير، وكانت هذه القبائل تسكن في نجد وأعالي الحجاز، وظهر منهم شعراء كثيرون كالنابغتين وزهير وابنه كعب ولبيد والحطيئة والشماخ ومُزَرِّد وعنترة، ثم استقر الشعرُ في تميم وهي كبرى قبائل مضر، ومن بطونها: مازن ودارِم ويَرْبُوع ومجاشع ومالك، ومن شعرائها أوس بن حَجَر، ثم ظهر الشعر في بطون مدركة بعد ذلك من هذيل وأسد وكنانة وقريش وغيرهم[2].

على أن حظ القبائل المضرية من هذا الشعر الجاهلي كان أوفر من حظ القبائل الرَّبَعيَّة والقحطانية، ويدلنا على ذلك ما نَقْرَؤُهُ في مصادر الشعر الجاهلي كالأغاني والمفضليات والأصمعيات فإن فيها لقبائل مضر الكثرة الكثيرة من الشعر والشعراء، ثم إن حظ القبائل المضرية من الشعر متفاوتٌ بينها، وكذلك كانت القبائل الرَّبَعيَّة والقحطانية، فقبائل كلٍّ مجموعة منهم ليست فيه على سواء. فقد روي أن حسان بن ثابت كان يقول: أشعرُ الناس حيّاً هُذَيْلٌ، ويقول ابن سلاّم: وأشعر هذيل أبو ذؤيب غير مُدافَع[3]، وقال الأصمعي: قال أبو عمرو بن العلاء: أفصح الشعراء لساناً وأعذبهم أهل السَّرَوات وهن ثلاث، وهي الجبال المطلة على تِهامة مما يلي اليمن:

---

(١) في الأدب الجاهلي ص١٩٢.

(٢) انظر قصة الأدب في الحجاز د. محمد عبد المنعم خفاجي ص٢٢٦.

(٣) العمدة لابن رشيق جـ ١ ص٨٨.

فأولها هذيل وهي تلي السهلَ من تهامة،ثم بَجيلةُ في السّراة الوسطى، وقد شَرِكَتْهُم ثقيف في ناحية منها، ثم سَرَاةُ الأزدِ أَزْدِ شَنُوءة وهم بنو الحارث بن كعب بن الحارث ابن نضر بن الأزد" وقال أبو عمرو أيضاً: أفصح الناس عُلْيَا هوازن وسُفْلَى قيس"(١).

كما عرف عن قريش تخلفها في الشعر الجاهلي، ولعل ذلك يرجع إلى أنّ قريشاً لم تكن مشهورة بالحروب والأيام، ولما جاء الإسلام ازداد مجدُها وصارت قبيلة الخلافة الإسلامية، التي جمعت وظيفتها بين السلطتين الدينية والدنيوية. أما المدن فشعراؤها قليلون ومن أشهرهم حسان بن ثابت شاعر المدينة وشاعر رسول الله ﷺ، وكذلك مكة فقد كانت قليلة الشعر، وأقل منها نصيباً فيه اليمامة. وقد وقف الجاحظ في كتاب "الحيوان" عند جانب من حظوظ القبائل في الشعر وتفاوتها في ذلك فقال: " وبنو حنيفة مع كثرة عددهم، وشدة بأسهم، وكثرة وقائعهم وحسد العرب لهم على دارهم وتخومهم وسط أعدائهم، حتى كأنهم وحدهم يعدلون بكراً كلها ـ ومع ذلك لم نر قبيلة قطُّ أقل شعراً منهم. وفي أخوتهم عجْلٍ قصيدٌ ورجزٌ وشعراء رجَّازون. وليس ذلك لمكان الخصب وأنهم أهل مدر، وأكَّالُو تمرٍ، لأن الأوس والخزرج كذلك، وهم في الشعر كما قد علمت. وكذلك عبد القيس النازلة قرى البحرين فقد تعرف أن طعامهم أطيب من طعام أهل اليمامة. وثقيف أهل دارٍ نَاهِيكَ بها خصباً وطيباً، وهم وإن كان شعرهم أقلَّ، مطبوعون في الشعر بشكل عجيب يدل عليه شعرهم القليل. وليس ذلك من قبل رداءة الغذاء، ولا من قلَّة الخصب الشاغل والغنى عن الناس،وإنما ذلك عن قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز. وبنو الحارث بن كعب قَبيلٌ شريف، يجرون مجاري ملوك اليمن، ومجاري سادات أعراب أهل نجد، ولم يكن لهم في الجاهلية كبير حظ من الشعر، ولهم في الإسلام شعراء مُفْلِقون. وبنو بدر كانوا مُفْحَمين(٢)، وكان ما أطلق الله به ألسنة العرب خيراً لهم من تصيير الشعر في أنفسهم. وقد يحظى بالشعر ناس ويخرج آخرون، وإن كانوا مثلهم أو فوقهم. ولم تُمدح قبيلة في الجاهلية من قريش، كما مُدحت مخزوم، ولم يتهيأ من الشاهد والمثل لمادحٍ في أحد من العرب، ما تهيَّأ لبني بدر، وقد كان في ولد زُرارَة ـ جد بطن من تميم ــ لصلبة شعر كثير، كشعر لَقِيطٍ

---

(١) العمدة لابن رشيق جـ ١ ص٨٨.

(٢) في القاموس: "المُفْحَم كمُكْرَم: العييُّ ومَن لا يَقْدِرُ يقولُ شعراً".

وحاجب وغيرهما من وُلْده. ولم يكن لحذيفة ولا حِصن، ولا عُيَيْنَةَ بن حِصن، ولا لحَمَلِ بن بدر شعر مذكور"(١).

أما عن كمية الشعر الجاهلي فلا شك أنه كان كثيراً كثرةً هائلة، ولم يصل إلينا منه إلا القليل، فقد كان القوم أُمّيين، ولا عهد لهم بالتدوين، فلم يقيدوا ما يقولون، بل كان كل اعتمادهم على الرواية الشفوية، ولا ريب أن الحافظة تتعرض للنسيان، ولا تحفظ ما يحفظه التدوين، ولذلك نجد أن من المحقق أنه فُقد الكثيرُ من الشعر الجاهلي، إذ عَدَتْ عليه عوادي الرواية، وتلك المدة الطويلة التي قطعها من الجاهلية إلى عصور التدوين، وقد روي أن أبا عمرو بن العلاء قال: "ما انتهى إليكم مِمّا قالت العربُ إلا أقلُّه، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعرٌ كثير"(٢). وقال عمر بن الخطاب: "كان الشعرُ علْمَ قَومٍ لم يكن لهم علمٌ أصحُّ منه، فجاء الإسلامُ فتشاغلت عنه العربُ وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولَهَتْ عن الشعر وروايته. فلما كَثر الإسلامُ، وجاءت الفتوحُ، واطمأنَّت العربُ بالأمصار، راجعوا روايةَ الشعر، فلم يَئلُوا إلى ديوان مُدَوَّنٍ ولا كتاب مكتوب، فأَلْفَوْا ذلك وقد هلكَ من العرب مَنْ هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقلَّ ذلك، وذهب عنهم منه أكثره"(٣).

ومع ذلك بقي من الشعر الجاهلي كثير، وأُلِّفت فيه مجلدات ضخام،فقد حافظت القبائل بكل ما استطاعت على قصائده الطويلة، ومقطعاته القصيرة، وكثير من أبياته المفردة، وظلّت تحافظ عليه وترويه حتى تَسَلَّمَهُ الرواةُ الثقات الأمناء الذين سجلوه ودَوَّنوه في كتبهم.

ولكن ما السرّ في هذه الشاعرية العربية؟!

إن هذا البحر الزاخر من الشعر، وذلك المعين الذي لا ينضب من القريض، الذي أبدعته قرائحهم الخلاقة،لدليلٌ صادقٌ على توقد الشاعرية واضطرامها عند العرب. فالشاعرية التي كانت عند العرب، لم تكن عند أمة من الأمم، ولا شك أنهم أشعر من غيرهم، ولذلك تفجَّر الشعر على لسان كلّ عربي وعربية، لا فرق بين الملوك والأمراء، والسادة والحكماء، والفرسان والصعاليك، وغير هؤلاء وأولئك من شتى الطبقات.

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ جـ ٤ ص٣٨٠ ط الحلبي.

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ص١٢.

(٣) المرجع السابق ص١٢.

ولَعلّ السرّ في هذه الشاعرية الميالة هو الفراغ الذي كان يتمتع به العربي مما أدى إلى صفاء ذهنه وتوقد حسه، ثم الصحراء وطبيعة جوّها الذي يوحي بالشعر، فهي جميلة وهادئة تملأ القلبَ روعةً، والنفسَ عاطفةً، والشعرَ إبداعاً، هذا فضلاً عن الحرية المطلقة التي يشعر بها ساكنُ الصحراء،مما يجعله يحسّ بالانطلاق فيتحرك لسانه بالتعبير عما في الضمير. ومن أسرار شاعريتهم صفاء قرائحهم وسرعة خواطرهم فالعربي ذكي سريع البديهة، متوقد الإحساس جيّاش العواطف. هذا إلى جانب ظروفهم الاجتماعية وما كان بينهم من كثرة الحروب والغارات التي أثارت مشاعرهم، وهاجت أحاسيسهم، وأذكت عواطفهم. أضف إلى ذلك استقلالهم السياسي، وما فرضته عليهم حياتهم من حِلٍّ وتَرحال،وما ترتب على ذلك من لوعة فراق الأحباب، وترك الأعزاء. فاندفعوا نحو الوقوف بالأطلال، وأضحوا لذلك أهل حَبّ وهُيام، كما كانوا أهل حرب وصدام، يضاف إلى ذلك أنهم أُمّة أُمِّيَّة تعتمد على الذاكرة لا على التدوين، فكانت حافظتهم قوية، والشعر أسهل في الحافظة رواية،وأعلق بالذهن، ومن أسباب شاعريتهم أيضاً اللغة العربية نفسها،وهي لغة غزيرة المادة، كثيرة المفردات،شاعرية برنينها وموسيقاها، فأمدَّتْهم بحاجاتهم، وتجاوبت مع مشاعرهم وعواطفهم(١).

ولا شكّ أنه مما ساعد على تدفق شاعريتهم،ما كان من تنافسٍ طبعي بين أصحاب المواهب الخلاقة في مختلف القبائل التي كان يسودها النظام القبلي، فكلّ قبيلةٍ تعمل على أن تحتلَّ الذّروةَ العليا في جميع الميادين، وفي مقدمتها ميدان الفصاحة والبيان، الذي يجعل ذكرها على كل لسان، ومما تسير به الركبان،في كلّ زمان ومكان.

فلا عجب إذن أن يكون العربُ أشعرَ من غيرهم من الأمم،فالحقّ أنهم كانوا شعراء بالفطرة، شاع فيهم الشعر وغلب عليهم ، وفاضت به قرائحُهم ومَلَكاتُهم، فهم بطبيعتهم أُمة شاعرة. يقول ابن سلاّم: " وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون وإليه يصيرون"(٢).

---

(١) انظر الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام د. عبد الحميد المسلوت ص٢٢٨.

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ص١٢.

نشأة الشعر الجاهلي:

يصعب على الباحث أن يهتدي إلى تاريخ صحيح لمولد هذا الفن ونشأته عند العرب،وواضح أن بدايته غامضة، فلا يعقل أن يكون قد وصل إلينا من هذه القصائد الطويلة المهذبة التي تظهر فيها الروعة والجمال الفني،وتتجلى معها الأساليب الرفيعة، والصياغات المحكمة، بل لا بدّ أن يكون قد قطع أشواطاً كثيرة في سبيل التدرج الأدبي، حتى استوى في هذه الصورة الفنية الكاملة.

وهم يقولون: إن أوّلية هذا الشعر ترجع إلى ما قبل الإسلام بقرن ونصف أو قرنين على الأكثر،وقد لاحظ الجاحظ ذلك حين أراد تحديد العصر الجاهلي فقال: "وأما الشعر فحديث الميلاد، صغير السّنّ، أوّل مَن نهج سبيله، وسَهَّل الطريق إليه: امرؤُ القَيْس بن حُجْر، ومُهَلْهِل بن ربيعة، فإذا استظهرنا الشِّعْرَ وجَدْنا له -إلى أنْ أنْعَم اللهُ بالإسلام- خمسين ومئة عام، وإذا استَظْهَرْنا بغاية الاستظهار فمائتي عام[1]. فالجاحظ يحدِّدُ الفترة الزمنية بأنّها تبدأ مع ظهور امرئ القيس والمهلهل وتنتهي بظهور الإسلام، ولعله يقصد أنه لا يجد قبل هذين الشاعرين من المادة الفنية ما يساعده على تحديد البداية. كما تحدث ابن سلاّم عن أوائل الشعراء الجاهليين فقال: "ولم يكنْ لأَوائل العرب من الشِّعرِ إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته، وإنما قُصِّدَت القصائدُ وطُوِّلَ الشِّعرُ على عَهْد عبد المطَّلبِ وهاشِمِ بن عبد مَناف"[2].

ولا يمكن لباحث أن يطمئن إلى أن هذا التراث الشعري الحافل، وذلك الفنّ المهذب الخالد، يرجع إلى قرن ونصف أو قرنين قبل البعثة، فلا يعقل أن يُولدَ فنّ كامل النمو، في درجة عالية من التقدّم والكمال، الذي لا يعتريه الضعف أو الهزال. فلا شكّ أنه سار في مراحل كثيرة حتى صار فنّاً مُستقلاً، واستوى في صورته الفنية، ولا بدّ أنهم كانوا قد حاولوا محاولات شتى في التعبير الأدبيّ، وصُوَرِه الفنية حتى وصلُوا بأدبهم إلى هذه الدرجة العليا من الجمال والكمال.

يقول الأستاذ طه أحمد إبراهيم: "وإن هذا الشعرَ مَرَّ بضُروبٍ كثيرة من التهذيب حتى بلغ ذلك الإتقان الذي نجده عليه أواخرَ العصر الجاهلي، فبين الحداء الذي يُظنّ أنه نواةُ الشعر العربي وبين القصيدة المُحْكَمَة عصرٌ طويل للنقد الأدبيّ ألحَّ على الشعر

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ جـ١ ص٧٤، ط الحلبي - بتصرف.

(٢) طبقات الشعراء لابن سلاّم ص١٢.

بالإصلاح والتهذيب، حتى انتهى به إلى الصحة وإلى الجودة والإحكام،فلم يكن طفرة أن يهتدي العربي لوحدة الرَّوي في القصيدة، ولا لوحدة حركة الروي، ولا للتصريع في أولها، ولا لافتتاحها بالنسيب والوقوف بالأطلال،لم يكن طفرة أن يعرف العرب كلَّ تلك الأصول الشعرية في القصيدة، وكل تلك المواضعات في ابتداءاته مثلاً، وإنما عرف ذلك كلَّه بعد تجارب، وبعد إصلاح وتهذيب"(١).

والحقّ أن العربي قد اهتدى إلى الشعر بفطرته،وانساق إليه بطبيعته، فجذبه ما في الكون من دقّة التناسق، وجمال الانسجام، وحلو الأنغام، ودعته طبيعته إلى أن يتغنى بما يجيش في صدره، ويشدو بما تفيض به نفسه، من ألوان الأحاسيس، وضروب الانفعالات،فانطلق بالغناء لسانُه، وتفجر به بيانه، فالغناء ظاهرة فطرية لازمت الإنسان منذ وُجد،ونشأة الشعر تكاد تكون توأماً لنشأة الغناء(٢). وكل الجمال المنبعث منهما له تأثير رائع على الأفئدة والأسماع، وعلى الغرائز والطباع، ثم أخذ كلّ فنّ منهما طريقه يعمل دائباً في تبليغ رسالته، ويتدرج في أداء مهمته،فتدرجت أوزان الشعر وتعددت وأخذت صورتها المعروفة الآن، كما تدرجت ألحان الغناء وأصبح فنّاً مستقلاً بنفسه،وصار الشعر قادراً على أن يُصَوِّر خوالجَ النفوس، ويرسم الأحاسيس والانفعالات،دون حاجة أو قصد إلى الغناء. يقول ابن رشيق: "كان الكلام كلّه منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأنجاد، وسمحائها الأجواد، لتهز أنفسها إلى الكرم،وتدل أبناءها على حسن الشيم، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً، لأنهم شعروا به،أي : فطنوا له"(٣).

فالقدماء وعلى رأسهم الجاحظ أرخوا بداية الشعر مع عصر امرئ القيس ومهلهل ابن ربيعة، إلا أن كثيراً من المُحْدَثين رفضوا هذا الرأي، لأن استواء الشكل الفنيِّ والصنعة الدقيقة، لهذا الشعر يثبتان أن هناك أشواطاً ومراحل سبقت عصر امرئ القيس ومهلهل. والحقّ أن الذي يتقبله العقل،ويطمئن إليه ضمير الباحث، أن الشعر قد مر بمراحل حيث نما فيها، وتدرّج من صورته الأولى حتى وصل إلى هذا المستوى

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب للأستاذ طه أحمد إبراهيم ص١١.

(٢) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام د. المسلوت ص١٩١.

(٣) العمدة لابن رشيق جـ ١ ص٢٠.

من الروعة والجمال. يقول كارلو نالينو: "والحقّ يقال: إنّ مَن يُسَرِّح أبصاره في رياض الشعر الجاهلي لا يجد في شذراته التي نجت من أيدي الضياع ما يدلّ على كونه فنّاً صغير السّنّ، فإن جميع ما نقل إلينا منه يَظهرُ لنا في غاية الإتقان وزناً وتَقْفِيَةً، وفي نهاية التفنن من الافتخار والتحضيض والزجر والإغراء والوَعْد والوَعيد والتأديب والمدح والغزل والهجاء والوصف والرثاء، وهو يجمع رقة العبارة إلى دقة الإشارة، ومتانة التراكيب إلى رشاقة الأساليب. فليس من الممكن مثل هذا الكمال في صناعة حديثة، لأنه من المعلوم أنّ كلَّ مبتدئ لشيء لم يُسْبَقْ إليه،وكلَّ مُبتَدِعٍ لأمرٍ لم يُتقدَّم فيه عليه، لا بد من أن يكون قليلاً ثم يكثر، وصغيراً ثم يكبر، وضعيفاً ثم يتقوى.

وخلاصة الأمر أنّ العلماء من العرب الذين قالوا بمدة مئةٍ وخمسين سنة تقريباً للشعر الجاهلي لم يبعدوا عن الصواب إذا فرضنا أنهم إنما أرادوا بذلك ما وصل إلينا من الأشعار القديمة"(١).

على أننا إذا قلنا: إن أولية الشعر الجاهلي تبدو غامضة، وأنه قد مرّ بمراحلَ وأشواط متعددة حتى وصل إلى هذه الصورة الفنية التي ظهرت فيها الروعة والجمال الفنيّ، وتجلت فيها الأساليب الجيدة، والصياغات المُحْكَمَة، فلا ينبغي علينا أن نأخذ بالأشعار المنسوبة إلى عاد وثمود، أو إلى طسم وجديس، إلى آخر تلك الأسماء التي وعاها التاريخ مجردة عن آثارها، ومن أمثلة ذلك ما روي من قول ثمود لما دعا ولده ومَن تبعه إلى نزول الحِجْر نحو وادي القرى بين الشام والحجاز:

أنا الفتى الذي دُعِي ثمودا ... يا قومُ سيروا ودعوا الترديدَا

لعلّنا أن ندركَ الوفودا ... فنلحق البادي لنا البعيدَا

إنا أَبَيْنَا ليَعْرُبَ الحميدَا ... وعادَ ما عادَ الفتَى الجليدَا(٢)

فلسنا بحاجة إلى تكذيب مثل هذا الشعر، والقول بانتحاله قطعاً وبلا تردد، وقد كفانا ابن سلاّم نقد هذا الضَّرْب من الأشعار حين قال: "وكان ممَّنْ هَجَّنَ الشعرَ وأفسدَه، وحمل منه كل غُثَاءٍ محمدُ بنُ إسحاقَ مولى آل مَخرَمَة بن المُطلَّب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسِّيَر، فقبلَ الناس عنه الأشعارَ، وكان يعتذر منها

---

(١) تاريخ الآداب العربية - كارلو نالينو ص٦٨.

(٢) تاريخ بغداد جـ ٥ ص١٢٨.

ويقول: لا علم لي بالشعر إنما أُوتي به فأحمله، ولم يكن ذلك له عذراً، فكتب في السِّيَرِ من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قطُّ، ومن أشعار النساء فضلاً عن أشعار الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عادٍ وثمودَ أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: مَنْ حمل هذا الشعر؟ ومَنْ أدّاه منذ ألوفٍ من السنين والله يقول: ﴿ **وأنَّه أهلكَ عاداً الأولى. وثمودَ فما أبقى** ﴾ [النجم: ٥٠-٥١] وقال في عادٍ: ﴿ **فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ** ﴾[الحاقة:٨] وقال: ﴿ **وعادٍ وثمودَ والذينَ من بعدهم لا يعلمُهُمْ إلا الله** ﴾ [إبراهيم: ٩][١].

وهناك مسألة أخرى تتعلق بنشأة الشِّعْرِ وأوزانه، وهي ما زعمه بعض القدماء والمحدثين من أن الرجز أقدم أوزان الشعر العربي، وأنه تولد من السجع مرتبطاً بالحُداء، ووقع أخفاف الإبل في أثناء سيرها في الصحراء ، ثم تولدت من الرجز أوزان الشعر الأخرى[٢].

والحقّ أن هذا مجرد فرض، فإذا شاع الرجز في الجاهلية فإنّ هذا لا يعني قدمه أو سبقه للأوزان الأخرى. والواقع أنه "كان الرجز قليلاً في الجاهلية، وكانت العرب تقوله في الحرب والحُداء والمفاخرة،وما جرى هذا المجرى فتأتي منه بأبيات يسيرة"[٣]، وكان على قلّته لغة شعبية يستعمل في الحُداء، وفي السقي على الآبار، وفي الأعمال وفي أثناء المبارزة وغير ذلك مما لا يبلغ به مكانة القصيد. وكان الشعراء الممتازون لا ينظمون فيه أشعارهم،وإنما ينظمون في الطويل والبسيط والكامل والوافر والسريع والمديد والخفيف وغير ذلك. وقد كان الرَّجازون أقلية بالنسبة إلى الشعراء، ولم يقم الرجز بما كان يقوم به القصيد من الفخر والهجاء، وكان أسلوبه فيه الكثير من الغريب،وكان عند وزن واحد لا يتعداه، فأوقع ذلك في نفوس بعض الرجاز أنهم أدنى من الشعراء مكانة، ومن جهة أخرى وقع في نفوس الشعراء أن الرجز ليس ندّاً للقصيد وإن كان من الرجاز من قُدِّر فنّه كلّ التقدير، واعتُز به كلّ الاعتزاز[٤].

ومهما يكن من أمر فإن هذا الرأي القائم على التدرج من السجع إلى الرجز إلى الأوزان الشعرية الأخرى مجرد فرض، والحقّ أنه لا أساس له من الصحة لا سيما إذا

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلاّم ص٦ .

(٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان جـ ١ ص٥١ .

(٣) تاريخ النقد الأدبي عند العرب للأستاذ طه أحمد إبراهيم ص٤٤ .

(٤) المرجع السابق ص٤٥ .

لاحظنا نشأة الشعر الغنائية،مما يجعلنا نرجح أن الشِّعر أسبقُ من السجع والرجز كما قال بذلك الدكتور سليمان ربيع: "وعندي أن هذا الرأي قام على أساس ساذج هو أن الحداء أو الرجز بحر بسيط[1] يتلو النثر في الوجود. ولكن من قال: إن الرجز يجب أن يكون أول البحور؟ ومن قال: إن الشعر لا بد أن تتدرج أوزانه؟ وإذا كان الشعر وليد الغناء أو الحداء فمن حتَّم أن يكون مشتقاً من سير الإبل في الصحراء؟ الحقّ أن ذلك رأي احتيالي كذلك... إن مذهب التدرج هذا شكلي نظري قائم على ظواهر ساذجة هي بساطة[1] المرسل، فمركب السجع فتقييد الرجز. والواقع أن الشعر ربما كان أيسر من السجع ومن الرجز أيضاً إذا لاحظنا نشأته الطبيعية[2] الغنائية. والمرجح أن الشعر سبق السجع والرجز وبخاصّة إذا لاحظنا أن السجع والرجز ظواهر اجتماعية تتأخَّر في الوجود عن الشعر الغنائي"[3].

وقد كان الشعر كلّه عند العرب رجزاً أو قصيداً، فكلّ ما لم يكن رجزاً سموه قصيداً من أيٍّ بحر كان، قال الراجز العجلي لما استنشده المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة:

أَرَجَـزاً تريـدُ أم قصيـداً لقد سألتَ هيِّناً موجوداً

والقصيد اسم جنس جمعي يفرق بينه وبين واحده بالتاء، واحدته قصيدة.

الشعر الجاهلي شعر غنائي:

يرى أدباء الإفرنج ونقادهم أن الشعر ينقسم إلى ثلاثة أنواعٍ: قصصي، وتمثيلي وغنائي، وقد كانت هذه الأنواع الثلاثة في الشعر اليوناني، ثم قَلَّدَهم الرومانيون بالنظم في شتى هذه الأنواع، ثم تبعهم في ذلك الشعر الأوروبي بالنظم على الأصول اليونانية من حيث الأنواع الثلاثة المعروفة.

الشعر القصصي: وهو الذي يقصُّ ويصوِّر الوقائع والعادات وأحوال الشعوب ويصف سِيَر الأبطالِ وبطولاتهم،كما يستوحي الآلهة والأساطير الخرافية. ويمتاز هذا

(١) كلمة بسيط وكلمة بساطة كلمتان شائعتان في الاستعمال حديثاً ولكن الصواب: يسير ويسارة.

(٢) هذه النسبة شائعة أيضاً، ولكنّها خطأ والصواب: الطبعية بدون ياء بعد الباء.

(٣) محاضرات في الأدب الجاهلي، د. سليمان حسن ربيع ص٩٢.

النوع بأن قصائده طويلة، وقد تمتد إلى آلاف من الأبيات،وتتوالى فيها حلقات من الأحداث المتسلسلة، تنعقد حول بطل عظيم، وقد يكون معه أبطال آخرون ولكن أدوارهم ثانوية، وهي في حقيقتها قصة إلا أنها كتبت شعراً، فلا ينطق فيها الشاعر بلسانه، وإنما ينطق بلسان الأبطال الذين اختارهم، فيفصح عما في نفوسهم، فتتوارى فيه شخصية الشاعر،وتظهر شخصيَّةُ أُمَّته في جيل من أجيال التاريخ، وقد تكون الملحمة الشعرية من إنشاء شاعر واحد، أو جماعة متعاقبة من الشعراء. والقصة لا بدّ أن تعتمد على براعة الخيال وقوة الحبك، والتسلسل القصصي فيها يمتاز بالدقة، والانتقال بين أجزائها من حادث إلى آخر يكون بصورة منطقية مُحْكَمَة، ولا بدّ أن يراعي الشاعر حسن الملائمة بين المناظر المختلفة والاحتيال في إنطاق الأشخاص وما يختلج في نفوسهم من مشاعر وأحاسيس وانفعالات.

والشاعر في هذا النوع القصصي لا يتحدث عن عواطفه ومشاعره، فهو موضوعي ينكر نفسه، فيهدف إلى سرد واقعة أو حادثة أو حكاية مسلسلة من الأحداث، ويتحدث فيها عن بطل معتمداً على خياله،مستمداً موضوعها من تاريخ أُمَّته، فهو يخلق القصة ويرتب لها الأشخاص والأشياء،ويجمع ما يناسبها من معلومات، فيكوّن بذلك قصيدته التي تكون عادة من وزن واحد لا تتعداه.

فإذا صورت القصة الأمجاد الحربية والمفاخر القومية، وتغنت بتاريخ الأمة وما فيها من شجاعة وبطولة،وتحدثت عن أعمال الأبطال وما لهم من مغامرات في الحروب عند ملاقاة الأعداء سميت حينئذ ملحمة، فهي[1] تسجيل ألوان البطولة لأُمّة على لسان شاعر بارع يحكي البطولات ويدوِّنُ الخوارقَ ويتغنَى بالأمجاد والمناقب، ولا بُدّ فيها من بطل مغامر يقتحم الأهوال، ويخوض الصعوبات، ويأتي بأعمال خارقة تخرج عما يألفه الناس في عاداتهم، ويتضح فيها كذلك قوة الصياغة وروعة الأسلوب وجمال الأداء حتى تجذب نحوها النفوس والأسماع. ومن الملاحم المشهورة الإلياذة لهوميروس شاعر اليونان العظيم، وهي ملحمة في ستة عشر ألف بيت، مسلسلة الحوادث وفي موضوع واحد هو حرب طروادة مع اليونان، ثم ملحمة الأوذيسة لهوميروس أيضاً، وكذلك الإلياذة وهي ملحمة من نظم الشاعر الروماني "فرجيل" وقد نظمها مقلداً هوميروس في القرن الأول الميلادي، وهناك ملحمة المهابهارته وهي ملحمة هندية، ثم الشاهنامة وهي ملحمة فارسية.

---

(١) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام د. المسلوت ص٢٣٠.

الشعر التمثيلي: وهذا النوع موضوعي أيضاً، ويقوم كذلك على القصة وحوادثها،ويعتمد على مسرح وعلى حركة وعمل معقد وحوار طويل بين الأشخاص،وتتخلل ذلك مشاهد ومناظر متعددة، يقوم بها أبطال وأشخاص يمثل كل منهم دوره في إتقان وبراعة، ويظهر أمام العيون بالوقائع،فيمثلها ناطقة بالصورة التي تناسب الموقف الذي يقوم به،حتى يُخيَّل للنظارة أنهم يشاهدون حقيقة من الحقائق، وينسون أنهم يشاهدون شيئاً مقلداً . فالشعر التمثيلي يعتمد على الحوار والمجاذبة بين أشخاص مختلفين، ويعتمد كذلك على مناظر يراها النظارة على المسرح في التمثيل.

ولا شَكَّ أن الشعر التمثيلي يؤثر في النفس تأثيراً بليغاً، لأنه عن طريق البصر وطريق السمع، فالبصر يشاهد المناظر المؤثرة،ويشاهد البطل والملابس والأدوات التي تضفي على الأحداث قُوَّتَها، والسمعُ يؤثر فيه الأسلوب الساحر،والتصوير البارع للأفكار والمعاني،ولهذا يكون تأثيره في النفس بليغاً، وهذا يجعل القطعة الأدبية أقوى تأثيراً في المشاعر وتهييجاً للعواطف، ولهذا تكون فائدة الجماهير منها كبيرة وخاصّة عند العوام والذين لم ينالوا قسطاً من التعليم حيث يسهل تثقيفهم.

ولم يعرف الشعر الجاهلي هذا اللون من الشعر التمثيلي، كما لم يعرف الملاحم فكان شعر الجاهلية ذوويا[1] يمثل صاحبه ومشاعره، على حين أن الشعر التمثيلي والملاحم كلاهما موضوعي.

الشعر الغنائي أو الوجداني : وهذا الشعر يصف به الشاعر أحاسيسه، وما يجيش في نفسه من مشاعر وأفكار، فيصور العواطف الإنسانية،ويتحدث فيه عن الجمال والطبيعة حديث المتأمل المفكر. فهذا الشعر يعبر عن مشاعر الشاعر وخواطره وآماله وآلامه وأحلامه وتأملاته تعبيراً صادقاً واضحاً مؤثراً. " ولعل الذين قسموا الشعر إلى قصصي وتمثيلي وغنائي، لحظوا أبرز معنى يغلب على كل قسم، فالقصصي يظهر فيه القصص واضحاً غلاباً، وإن كان مما يمكن أن يتغنى به،والتمثيلي يبرز فيه التمثيل واستعراض الحركات، والغنائي يغلب عليه الصلاحية للغناء لأنه أدب ذووي[1] يصف الإحساس، ويصور الوجدان وإن لم يك في بعض صوره ومظاهره مما يصلح للغناء، وقد توجد فيه القصة ولكنها ليست من قوة المظهر واكتمال المقومات بحيث يمكن أن

---

(١) ذاتي نسبة خطأ، وإن كان بعض جهلة النحاة أجازه، ولذلك أبدلناه بالصواب.

يسمّى بها، فهو إذا كان قد حمل قصة أو حكى حادثاً أو صوّر منظراً من مناظر الحياة، فذلك مما وقع له عفواً، لأن سَوْق الكلام وتصوير ألوان النفس قد اقتضاه واستدعاه"[1].

والشعر الجاهلي جميعه غنائي فهو ذووي وجداني يصور نفسية الشاعر وما يختلج في نفسه من عواطف وأحاسيس ، ولذلك برع الشاعر العربي أشدَّ البراعة في كلّ ما يقع عليه حسّه، أو يتصل به سمعه، أو يراه بصره، وظهر ذلك جلياً في شعره حين يتحمس الشاعر ويفخر، أو حين يمدح ويهجو، أو حين يتغزّل أو يرثي، أوحين يعتذر ويعاتب، أو حين يصف أيّ شيء وقع عليه بصره في جزيرته، وظهر ذلك في وصف المرأة حين تحدث عن هيامه بها وحبه لها، وعندما وصف الإبل والخيل وقد أجاد في وصفها، فهما عدته في الحرب والقتال،فكان شعره في كل ذلك مما يأسر الأفئدة ويخلب الألباب.

ثم ينبغي أن نلاحظ أن الشعر الغنائي في الجاهلية له درجتان: درجة تنتهي غايتها عند المدح أو الهجاء أو الرثاء مما يصور عاطفة فردية شخصية قيل للتعبير عنها، وذلك يكون بين الأفراد في سبيل شعورهم الخاصّ، وهو نوع كثير عندهم، ودرجة أخرى جاوزت هذه الغاية الفردية إلى القبيلة كلّها، فهو فخر بها ،وهجاء لأعدائها، ورثاء لقتلاها في حروبها، أو هو فخر وهجاء ورثاء موجّه إلى شخص ولكن بواعثه قبلية، فنجد الرثاء مثلاً وعيداً وتهديداً للقاتل أكثر مما هو بكاء على القتيل، وذلك بعثاً وحثاً للأفراد على الانتقام وإثارة لحميتهم الجاهلية[2].

فالشاعر الجاهلي لم يكن قاصّاً، وإنما نطق بكل ما أملاه عليه شعوره ووجدانه، وتحدث عن نفسه وعن مجتمعه وبيئته،ولذلك لا نجد في الشعر الجاهلي شعراً قصصياً بالمعنى المعروف، فلا توجد فيه قصائد تصور حياة الأبطال في عدة آلاف من الأبيات، وكذلك لم ينظم الشاعر الجاهلي شعراً تمثيلياً، لأن هذا اللون من الشعر يحتاج إلى المعيشة المتحضرة، وإلى التفكير العميق والفلسفة والنظرات البعيدة للحياة، وهذه الأشياء لم تكن موفورة عند العرب في الجاهلية.

---

(١) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام د. المسلوت ص٢٣٣ .

(٢) انظر تاريخ الشعر السياسي للأستاذ أحمد الشايب ص٣٦ .

ويرى الأستاذ أحمد الشايب أن الأدب العربي لا يطمئن إلى جميع هذا المقاييس النقدية الشائعة في الآداب الأجنبية، وليس من الواجب على الأدب العربي القديم أن يستجيب إلى فنون أدبية أو صور خيالية" فإذا لم تتوافر للأعراب أسباب القصص الجاهلي فلم يقصوا، أو لم تؤهلهم درجتهم العقلية أو العلمية لهذا التعمق أو التسلسل العقلي أو التمدين الأدبي فلم يتمدين أدبهم ولم يسبقوا التاريخ، وإذا لم يخضعوا في تأليف الخيال واتخاذ عناصره، إلا لبيئتهم الخاصّة، فهل يكون من الإنصاف النقدي أن نحكم عليهم بالقصور وعلى أدبهم بالانحطاط والخشونة وسوء المصير؟"(١).

على أنه جاء بعض القصص في الشعر الجاهلي، ولكنها كانت قصيرة وساذجة، وهي لا تصل إلى الملاحم الكبيرة التي عرفها الإفرنج، وهي لا تعدو أن تكون قصصاً صغيرة من قبيل المقطوعات. ومثال ذلك ما قاله الأعشى في حادثة السموأل ووفائه لامرئ القيس إذ أبى أن يسلم دروعه، ورضي بقتل ابنه:

كُنْ كالسَّمَوْأل إذْ سارَ الهمامُ لهُ ... في جَحْفَلٍ كسوادِ الليلِ جرّارِ
إذْ سامَهُ خُطَّتَيْ خَسْفٍ فقالَ لهُ ... مهما تَقُلْهُ فإني سامعٌ حَارِ
فقال: ثُكْلٌ وغدرٌ أنتَ بينهُما ... فاخْتَرْ وما فيهما حَظٌّ لُمختَارِ
فَشَكَّ غيرَ قليلٍ ثم قالَ له: ... اذْبَحْ هَديَّكَ إني مانعٌ جاري
إن له خَلَفاً إن كُنْتَ قاتلَهُ ... وإنْ قَتَلْتَ كريماً غيرَ عُوّارِ
واختارَ أدْراعَهُ أن لا يُسَبَّ بها ... ولم يكنْ عهدُهُ فيها بخَتَّارِ(٢)

وقد سجل العرب وقائعهم في الحروب،وخلدوا مواقفهم في القتال،فنطقت بذلك أشعارهم وقصائدهم،وأن اختلف نهجهم وطريقتهم، وغايروا شعراء القصص والملاحم،فقد تحدث شعراء الجاهلية عن الحروب، وما يتمثل فيها من شجاعة وبطولة من أمثال عنترة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلِّزة والمهلهل، ولكنهم لم يُدرجوا ضمن شعراء الملاحم والقصص، لأنهم كانوا يصفون وجدانهم ومشاعرهم وإحساسهم، وقد ذكروا ذلك عفواً دون أن يقصدوا إلى وضع قصة أو يعمدوا إلى تصويرها.

---

(١) أصول النقد الأدبي للأستاذ أحمد الشايب ص١٧٨.

(٢) ديوان الأعشى ص١١٨ ط بيروت ـ الشركة اللبنانية للكتاب.

ولعلّ السّرَ في خُلُوِّ الشعر العربي من اللونين القصصي والتمثيلي أن كلّاً منهما يحتاج إلى الكتابة والتدوين، والعرب في الجاهلية كانوا أُمّة أُمّية يعتمدون على الحافظة والذاكرة، وأن مزاولة هذين اللونين من الشعر تقتضي الروية والفكرة، والعرب أهل بديهة وارتجال، ثم إنهما يتطلبان من الشاعر الإلمام بطبائع الناس، وقد شُغِل العرب بأنفسهم عن دراسة النفوس والتفرغ لتحليل طبائع الناس. وكذلك نجدهما يفتقران إلى التحليل والتطويل ويبتعدان عن الإيجاز، والعرب أشد الناس اختصاراً للقول. أضف إلى ذلك أنهما يعتمدان على كثرة الأساطير والخرافات التي لم تتوافر عند العرب. ثم إن قيود الوزن والقافية في الشعر العربي لا تساعد على الإطالة وإنشاء الملاحم الطويلة(١).

وعندي أن الأهم من ذلك كلّه هو شدّة تعلق العربيّ بالحرية ونزوعه إليها، وحبه الاستقلال بذاته،فاقتضى ذلك أن يوجه همه إلى وصف عواطفه وتسجيل مشاعره، وذكر ما يعيش فيه من السلام والحرب والشوق والحنين، إلى غير ذلك من ألوان شعوره مما لون شعره بلون غنائي ووجداني خالص.

والحقّ أن خُلُوَّ الشعر الجاهلي من الشعر القصصي والتمثيلي لا يطعن فيه ولا يعيبه، فقد جال بلونه الغنائي في كل ميدان، وتحدث في كلّ ناحية، وسجل خَفِيّ العواطف ودقيقَ المشاعر، ووصف مشاهد البيئة ومناظر الطبيعة، ومشاعر النفس الإنسانية، وكلّ ما يتصل بنفس الشاعر ووجدانه، فكان أشدّ ما يكون تمثيلاً للحياة الجاهلية، والطبيعة العربية.

التكسب بالشعر:

كان الشعراء في الجاهلية يأنفون من التكسب بأشعارهم، فلا يمدحون إنساناً إلا لأغراض شريفة، أو مقاصد نبيلة، قال ابن رشيق: "وكانت العرب لا تتكسب بالشعر وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقّها إلا بالشكر إعظاماً لها، كما قال امرؤ القيس بن حُجْر يمدح بني تيم رهط المعلى:

أقَرَّ حَشَا امرئ القيسِ بن حُجْرٍ بنو تَيْمٍ مصابيحُ الظلامِ

---

(١) انظر الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام د. المسلوت ص٢٣٩.

لأن المعلى أحسن إليه وأجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء، لقتله بني أبيه الذين قُتلوا بدَيْر مَرينا، فقيل لبني تيم مصابيح الظلام من ذلك اليوم لبيت امرئ القيس"(١).

على أنه قد وجدت طبقة من الشعراء، قصدت بشعرها الملوك والأمراء، ومدحت الأشراف والرؤساء، فأزْرَتْ بذلك الشعر ومكانته، وبالشاعر ومنزلته، فكان الكبراء والرؤساء والسادة قد أدركوا أن من مظاهر سيادتهم وعظمتهم أن يكون هناك شاعر يرفع من شأنهم ويُعلي من قَدْرِهم، ويذيع مفاخرهم وأخبارهم، ولذلك أخذوا يقربون الشعراء ويغدقون عليهم العطايا السَّنِيَّةَ والهبات السخيَّة.

وكان من نتيجة ذلك ما ذكره بعض العلماء من أنّ التكسب حَطَّ من قيمة الشعر، ومكانة الشعراء، حتى صار الخطيب عندهم أرفع منزلة من الشاعر،وقالوا: "كان الشاعر في مبتدأ الأمر أرفع منزلة من الخطيب، لحاجتهم إلى الشعر في تخليد المآثر وشدّ العارضة، وحماية العشيرة، وتهيبهم عند شاعر غيرهم من القبائل، فلا يقدم عليهم خوفاً من شاعرهم على نفسه وقبيلته، فلما تكسبوا به وجعلوه طعمةً ، وتولوا به الأعراض وتناولوها صارت الخطابة فوقه"(٢).

ومن الشعراء الذين كانوا في هذا السبيل النابغة الذبياني الذي قصد ملوك الحيرة وغسان، فمدحهم وأثنى عليهم، فأغدقوا عليه المال مكافأة له، وقَبِلَ عطاياهم ومن شعره في مدح النعمان بن المنذر:

ألم تَر أنَّ الله أعطاكَ سُورةً ... ترى كُلَّ مَلكٍ دونها يَتَذَبْذَبُ

فإنَّكَ شمسٌ والملوكُ كواكبٌ ... إذا طَلعَتْ لم يَبْدُ منهن كوكبُ

ومنهم كذلك زهير بن أبي سُلمى الذي مدح هَرِم بن سنان بقصائد خالدة،وكان هَرِم قد أجزلَ له العطاء حتى خجلَ زهيرٌ من كثرة عطاياه، ومما قاله في مدح هرم وقومه:

وفيهم مقاماتٌ حسان وجوهُهُم ... وأَنْدِيَةٌ ينتابُها القولُ والفِعْلُ

وإنْ جئتهم أَلفَيْتَ حول بيوتِهم ... مجالس قد يشفَى بأحلامها الجهلُ (٣)

---

(١) العمدة لابن رشيق جـ ١ ص٨٠.

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص٨٢.

(٣) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام د. المسلوت ص٢٤٤.

وروي أن عُمرَ بن الخطاب رضي الله عنه سأل ابنة زهير: ما فعلت حُلَلُ هرم بن سنان التي كساها أباك؟ قالت : أبلاها الدهر،قال: لكن ما كساه أبوك هَرِماً لم يبله الدهر. وروي أيضاً أن عمر بن الخطاب قال لبعض وَلَد هَرِم بن سنان: أنشدني ما قال فيكم زهير، فأنشده، فقال: لقد كان يقول فيكم فيحسن، قال: يا أمير المؤمنين إنا كنَّا نُعطِيه فَنُجْزِل، قال عمر: ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم(١).

وكان زهير قد مدح كذلك حِصْن بن حُذَيْفَة بن بدر الفزاري وقبل منه المنح والعطايا السخية، ومما قاله في مدحه:

وأبيضَ فياض يداهُ غمامةٌ ... على معتفيه ما تَغِبُّ فواضلُه

أخِي ثِقَةٍ لا تتلفُ الخمرُ مالَهُ ... ولكنه قد يهلكُ المالَ نائلُه

تراهُ إذا ما جئته مُتَهَلِّلاً ... كأنَّك تُعْطِيه الذي أنتَ سائلُه

ويقول فيها:

ومَنْ مثلُ حصنٍ في الحروبِ ومثلُهُ ... لإنكار ضيمٍ أو لأمْرٍ يُحاولُه (٢)

ويروى أن الأعشى جعل الشعر مُتجراً يَتَّجِرُ به نحو البلاد(٣)، وأنه جعل الشعر وسيلة إلى كسب القوت والأرزاق، ويرى أكثر العلماء أنه أوَّلُ مَنْ سأل بشعره وتكسب به.

والحقّ أن هذا التكسب كان له الأثر البالغ في الشعر، فقد جعلَ الشعرَ يتسم بطابع لم يكن له من قبل، وذلك أن الشاعر الذي كان ينطق به عفو الخاطر ويستوحيه مما يؤثر في نفسه من أحداث ومناظر، أخذ يشحذ همته، ويصقل ذهنه، ويراجع فكره، ويهذب شعره،ويتفنن في ضروب القول وألوان البيان، ليكتسب رضا الممدوح ويصل منه إلى ما يريد، ومن ذلك ما عرف عن زهير وقصائده التي تعرف بالحوليات، لأنه كان ينشئها ثم يراجعها ويهذبها ثم يعرضها بعد حول كامل،حتىٰ قيل لأمثال هؤلاء الشعراء المجوِّدين: "عَبِيدُ الشعر" ولقد أفرط عبيد الشعر في ذلك حتى قيل: إن

---

(١) العمدة لابن رشيق جـ١ ص٨١.

(٢) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام د. المسلوت ص٢٤٥.

(٣) بلوغ الأرب للألوسي جـ٣ ص٩١.

الحطيئة قال: "خير الشعر الحولي المحكَّك" وقال الأصمعي: "زهير بنُ أبي سُلْمى والحطيئة وأشباههما عَبِيدُ الشعر" وكذلك كل من جَوَّد في جميع شعرة ووقف عند كل بيت قاله، وأعاد فيه النظر حتى تكون أبيات القصيدة كلّها مستوية في الجودة[١].

والواقع أن قصائد المدح التي خلفها الجاهليون كانت صورة لأخلاقهم العربية وحياتهم وما فيها من كرم ومروءة، ومن حزم وشجاعة، فلا تقتصر فائدتها على أنها نصوص شعرية وما فيها من ثروة لغوية أو أدبية، ولذلك كان من الخطأ أن يقال: إن الشاعر قد يمدح مَنْ لا يستحق المديح، أو أن يقال: إن قصيدة المدح لا تعني أحداً سوى الشاعر والممدوح. يقول الأستاذ العقاد: "قد يبدو للمتعجل أن قصيدة المدح كلام لا يعني أحداً غير السيد الممدوح والشاعر المادح، ولا فائدة فيها لأحد بعد ذلك، غير كاسب المدح وكاسب العطاء، وليس أظهر من هذا الوهم عند أقرب نظرة فإن قصيدة المدح لو كانت كذلك لما استحقت من الممدوح نفسه أن يبذل فيها درهماً واحداً، ودع عنك المئات والألوف مما يذكره الرواة في أحاديث الجوائز والهبات. فلولا أن المجتمع يستفيد شيئاً من القصيدة ويحفظها لهذه الفائدة لما احتفى بها الممدوح، ولا جاشت بها مَلَكَةُ التعبير في الشاعر. إن المجتمع يستفيد من القصيدة أنها تحيي فيه أخلاقاً لا قوام له بغيرها في قيادته وسياسته ومعاملاته المتبادلة بين أفراده، وتلك هي أخلاق الشجاعة والرأي والحزم والكرم والمروءة والحياء وشمائل النيل والفداء، ولم يخطئ أبو تمام حين قال:

ولولا خِلال سَنَّها الشعرُ ما دَرى بناةُ العلا مِن أين تُؤْتَى المكارِمُ[٢]

القصيدة العربية:

قامت القصيدة العربية على جملة موضوعات متعددة، ينتقل الشاعر فيها من غرض إلى غرض، حيث صار من الممكن تقسيمها إلى أجزاء، يتناول كلٌّ جزء منها موضوعاً معيناً وكل موضوع فيها يشتمل على عدة معاني،وكل معنى فيها يحتويه بيت أو عدة أبيات.

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ ٢ ص١٣ .

(٢) أشتات، مجتمعات في اللغة والأدب للعقاد ص١٢٩ .

وكان الجزء الأول من القصيدة غالباً هو النسيب والتشبيب، أي: الحديث عن الأحبَّة والوقوف بديارهم، والبكاء على أطلالهم. وكان مذهب البكاء على الديار هو المذهب الأقوم والأعم الأشهر في القصيدة العربية، وقد قال الرواة في بيت امرئ القيس:

قِفا نبكِ من ذِكْرىَ حبيبٍ ومنزلِ   بِسِقْطِ اللِّوَى بين الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

إنه أحسن ابتداءات العرب وأبرعها وأجمعها لعدّة معانٍ في لفظٍ قليلٍ، حيث جعل البكاء للحبيب والمنزل جميعاً، ثم اتبعته الشعراء على هذا وأكثروا فيه القول(١).

وقد تمسك الشعراء الجاهليون بتقاليد هذه المقدمة من ذكر الأَطلال وبقاياها وما عفاها وما حلّ بها، ثم إلى بكائها واسترجاع الأيام التي قضوها على أرضها مع صاحباتهم من أهل تلك الديار. يقول ابن رشيق: "وللشعراء مذاهب في افتتاح القصائد بالنسيب لما فيه من عطف القلوب، واستدعاء القبول بحسب ما في الطباع من حبٍّ الغزل والميل إلى اللهوِ والنساء، وإن ذلك استدراج إلى ما بعده، ومقاصد الناس تختلف: فطريق أهل البادية ذكر الرحيل والانتقال، وتوقع البَيْن، والإشفاق منه، وصفة الطلول والحمول، والتشوّق بحنين الإبل ولمع البروق ومرّ النسيم، وذكر المياه التي يلتقون عليها والرياض التي يحلون بها من خُزامَي، وأقحوان وبَهار، وحنوة وظيان، وعرار وما أشبهها مِن زهر البَرِّية الذي تعرفه العرب.... وأهل الحاضرة يأتي أكثرُ تغزّلهم في ذكر الصدود، والهجران، والواشين والرقباء ومنعة الحرس والأبواب، وفي ذكر الشراب والندامَى..."(٢).

وإذا تأملنا الشعر الجاهليَّ نجد أن الشعراء الجاهليين ابتدؤوا قصائد كثيرة جداً بالمقدمة الغزلية، فيتحدث الشاعر عن صَدٍّ المحبوبة وهجرها، أو بُعْدها وانفصالها، وما يتركه الهجر والفراق من التعلُّق والشوق الشديديْن، فيذرف لذلك الدموع الغزيرة حَسْرةً وألماً، وقد يمرّ على خاطره تلك الأيام الماضية السعيدة والذكريات الحلوة الجميلة، حين كان يلقَى محبوبته ويبوح بما كان بينهما من علاقات غرامية وحبٍّ دفينٍ، حتى إذا ما انتهى من ذلك مضى في وصف جمالها الساحر وحسنها الفتان.

---

(١) الموازنة للآمدي جـ ١ ص٥٦٥.

(٢) العمدة لابن رشيق جـ ١ ص٢٢٥.

فهذا الحَادِرَةُ الذبيانيُّ يبدأ قصيدته بالتغزّل في محبوبته سُمَيَّة،ونراه لا يقوَى على كتمان لوعته ولهفته لفراق محبوبته،حين رآها عازمة على الرحيل،مقبلةً عليه في تصميم، وكأنها لم تقابله ولم تعرفه قبل ذلك، وكأنها لم تقض معه أوقاتاً سعيدة. فنراه يقف وهو يُلْقي عليها نظرات الوداع، يتأمل وجهها، ثم مضى يصف فتنته بجيدها الرشيق الذي يشبه جيد الغزال، ومضى يصف عينيها الحَوْراوَيْن وما فيهما من نظرات ساحرة فاترة، ووجها المشرق وحديثها العذب،وابتسامتها الحسنة الرقيقة،ثم ريقها الطيِّب العطر اللذيذ يقول:

بَكَرَتْ سُمَيَّةُ بُكْرَةً فَتَمَتَّعِ ... وَغَدَتْ غُدُوَّ مُفارقٍ لم يَرْبَعِ
وَتَزَوَّدَتْ عَيْني غداةَ لقيتُها ... بِلوَى البُنَيْنَةِ نظرةً لم تُقْلِعِ
وتَصَدَّفَتْ حتى اسْتَبَتْكَ بواضحٍ ... صَلْتٍ كَمُنْتَصَبِ الغزالِ الأَتْلَعِ
وَبِمُقْلَتَيْ حوراءَ تَحسبُ طرفَها ... وَسْنانَ، حُرَّةِ مُسْتَهَلِّ الأَدْمُعِ
وإذا تُنازِعُكَ الحديثَ رأَيْتَها ... حَسَناً تَبَسُّمُها لذيذَ المَكْرِعِ (١)

وهذا الأعشى الذي استكثر من المقدمات الغزلية،نراه في إحدى قصائده يبدأ بالحديث عن صاحبته، "تَيَّا" تلك التي أمعنت في الهجر والصد والبعد، مع أنه متعلق بها متهالك عليها،يود لو أدركها، لينال وطره منها،فهي فتاة ناعسة الطرف، ناعمة الجسم، تتفجر أنوثة وجمالاً،وقد ابتعدت عنه، ومالت إلى لِداتها من الشبان، وتركته ليكون رفيقاً لأترابه من النساء المُسنَّات، ويذكرها بأنه كان فتى فاتكاً وكثيراً ما تسلل إلى أمثالها من الفتيات الحسان، حتى أدركهن في هدوء من الليل، حيث تمتع بهن وأشبع حاجته منهن، وذلك حيث يقول:

أَجَدَّ "بتَيَّا" هَجْرُها وشتاتُها ... وحَبَّ بها لَوْ تُستطاعُ طِياتُهَا
وما خِلْتُ رأيَ السَّوْءِ علَّقَ قلبَهُ ... بِوَهْنانةٍ قَدْ أَوْهَنَتْها سَناتُهَا
رَأَتْ عُجُزاً في الحَيِّ أسنانَ أُمِّها ... لِداتي، وشُبَّانُ الرجالِ لداتُهَا
فشايَعَها ما أَبْصَرَتْ تَحْتَ دِرْعِها ... على صُوْمِنا واستَعْجَلَتْها أَنَاتُهَا
ومِثْلِكِ خَوْدٍ بادنٍ قَدْ طَلَبْتُها ... وساعَيْتُ مَعْصِيّاً لَدَيْنا وُشَاتُها (٢)

---

(١) المفضليات للضبي ص٤٣، وقطوف من ثمار الأدب جـ ٢ ص٦٢.
(٢) ديوان الأعشى ص٢١٠ ط بيروت ـ الشركة اللبنانية للكتاب.

وظلت تلك عادتهم في القصيد لا يحيد عنها شاعر، فقد كان الابتداء بالغزل والنسيب هو المنهج الفني للقصيدة، حتى في ظلال الإسلام، فعندما وقف كعب بن زهير ينشد قصيدته المشهورة في مدح الرسول ﷺ والاعتذار إليه، بدأها على عادتهم بالنسيب وانسياقاً مع طرائقهم في التشبيب فقال:

بانَتْ سعادُ فقلْبي اليومَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ إثْرَهَا لم يُفْدَ مكبولُ

وما سعادُ غداةَ البَيْنِ إذ رحلوا ... إلا أَغَنُّ غضيضُ الطَّرفِ مكحولُ

هيفاءُ مقبلةً عجراءُ مدبرةً ... لا يُشْتَكَى قِصَرٌ منها ولا طولُ

تجلو عوارضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتَسَمَتْ ... كأنه مُنْهَلٌ بالراحِ معلولُ (١)

وهكذا كانت القصائد الجاهلية تبتدئ بالغزل، ثم يُلِمّ فيها الشاعرُ بأغراضٍ كثيرة. وقد تكلم ابن قتيبة في هذه الظاهرة التي تعتبر من أخصّ خصائص الشعر العربي، وهو بدء القصيدة العربية بالنسيب، وعلَّل لهذا الأمر الذي يتصل بالنفس البشرية، فذكر أن الغزل والتشبيب مشتركان ومقسومان بين الناس جميعاً، وأن الغزل هو اللحن المميز الذي ينبه الجمهور ويجذب انتباههم وأن التشبيب مُحبَّب إلى النفوس ومتعلق بالقلوب، لما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، وإلْف النساء،ثم ذكر أن مسلك الشاعر الجاهلي في قصيده قد بلغ منتهى الروعة والإجادة الفنية، فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب،ثم اشترط أن يراعي الشاعر التناسب بين هذه الأقسام، حتى لا يطْغَى واحد على الآخر، فلا يطيل الشاعر في أحدها فيلحق السامعين الملل، ولا يقطع عن ذلك وفي النفوس طلب إلى المزيد،فنراه يقول: "وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مُقَصِّدَ القصيد إنّما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكى، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ كان نازلةُ العَمَد في الحلول والظَّعْن على خلاف ما عليه نازلة المدَر، لانتقالهم عن ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلأ، وتتبُّعهم مساقط الغيث،حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق،وفرط الصبابة والشوق، ليُميلَ نحوه القلوبَ، ويصرفَ إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاءَ الأسماع إليه، لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب، لما قد جعلَ اللهُ في

---

(١) قطوف من ثمار الأدب للدكتور عبد السلام سرحان ٢ / ١٧٩.

تركيب العباد من محبَّة الغزل، وإلْف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب، وضارباً فيه بسهم،حلال أو حرام. فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه،والاستماع له، عقَّبَ بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا النَّصَبَ والسهر، وسُرَى الليل، وحرّ الهجير، وإنضاءَ الراحلة والبعير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حقّ الرجاء وذمامة التأميل، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة،وهَزَّه للسَّماح، وفضَّله على الأشباه، وصَغَّرَ في قدره الجزيل، فالشاعر المجيد مَنْ سلك هذه الأساليبَ، وعدَّلَ بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر، ولم يُطِلْ فيُمِلَّ السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظمأٌ إلى المزيد"(١).

وهكذا كان النقاد العرب يفهمون النهج الفني للقصيدة العربية، ونرى كذلك أن ابن قتيبة قد تنبه إلى الوحدة الفنية في القصيدة العربية، حيث رآها مقسمة إلى أجزاء تواضع الشعراء عليها، وهي ذكر الديار والدمن والشكوى، وما لاقاه الشاعر من لُغوب، ثم الانتقال بعد ذلك إلى موضوع القصيدة كالمدح والاعتذار وغيرهما ثم الختام.

على أن تعدد الموضوعات في القصيدة العربية قد أفاد الأدب العربي فائدة كبيرة، فقد كان تعدد الموضوعات وسيلةً استطاع بها الشعراء أن ينوعوا في النظم وأن يظهروا براعتهم فيه، مع بقاء الغرض الأصلي وهو المدح مثلاً، فبهذا استطاع الشاعر أن يذكر في قصيدته قسطاً وافراً من الوصف والغزل ومن الحِكْمَة والمثل،وأحياناً الفخر أو الهجاء.

ويرى كثير من النقاد المُحْدَثين(٢) أن القصيدةَ العربية أبعثُ إلى النشاط والإقبال عليها من القصيدة ذات الموضوع الواحد، إذ إن الأخيرة مُمِلَّة ومُسْئِمة، وشَبَّهَ ذلك بالبستان أو بالحديقة التي تحتوي على أزهار متعددة الألوان، مختلفة العبير فإن النفس تأنس بالتنقل بين هذه الألوان المختلفة، بينما لو كانت كلّها مكونة من زهور ذات نوع واحد ولون واحد لَمَلَّها الإنسان وسَئِمَها.وكذلك القصيدة العربية، فإنه لا يخفى ما في التنويع في موضوعاتها من دفع للملل، ومن بعث على النشاط إليها والإقبال عليها.

---

(١) مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٧٥.

(٢) من محاضرة للأستاذ المرحوم الدكتور محمد سرحان في النقد الأدبي للدراسات العليا سنة ١٩٧٢م.

والحقّ أنه يكفي في القصيدة العربية أن تكون فيها وحدة نفسية أو شعورية أو ما يُسمَّى بالوحدة الفنية، ومعنى ذلك أن تكون مشاعر الشاعر قد تملأت بهذه الأحداث أو الموضوعات مجتمعة فسجلها في قصيدة واحدة، ومثال ذلك الشاعر العربي الذي ينتقل من وطنه في البادية إلى حاضرة من الحواضر ليمدحَ خليفة أو أميراً، فإننا نراه يصف شجواه وألمَه لفراق وطنه، ويتغزل في محبوبته التي يوشك أن يفارقها في رحلة طويلة، ثم يمرّ على ديار حبائبه وأطلالها فتجيش نفسه بالذكريات والمتع التي ظفر بها في هذه الأماكن،ويألم لزوالها أو خرابها، ثم تسير فيه ناقته في البَرِّيَّة، ويرافقها طويلاً وهي تَنْشَطُ حيناً وتَكِلُّ حيناً آخر،فينفلت إلى وصفها، وبيان محاسنها وقوتها على السير ونشاطها فيه، ولا يفوته أن يصوِّر ما شاهده في أثناء رحلته من جبال ووديان، ومن وحوش وغزلان، وما لاقاه خلالها من المشقّة والصعوبات، إذ إن ذلك كله سيكون باعثاً للخليفة أو الأمير على إجزال العطاء له، لقاء ما ناله من تعبٍ ونَصَبٍ وفراقِ أحبَّةٍ.

وبهذا نرى أن القصيدة إذا كانت من عدة مواضيع وأحسن الشاعرُ في الانتقال من بعضها إلى بعضها الآخر،فإنها تكون أروع مما إذا كانت في موضوع واحد.

وإذا كان بعض النقاد المُحْدَثين قد رأى أن الوحدة العضوية[1] لم تتوافر في القصيدة القديمة إلا نادراً مثل قصائد العذريين، أو الذين قصروا شعرهم على محبوبتهم، أمثال عمر بن أبي ربيعة وجميل بثينة من الشعراء الإسلاميين فقد كان في قصائدهم وحدة عضوية.

فكانَ ينبغي على هؤلاء النقاد أن يقولوا بالوحدة الفنية لا بالوحدة العضوية فإذا علمنا أن الشعر الجاهلي كلّه شعر غنائي، وأن الشعر الغنائي انفعالات يتلو بعضها بعضاً، وليس انفعالاً واحداً متصلاً، ثم إذا علمنا أن " أرسطو" نفسه كان لا يقصد سوى الوحدة العضوية في المسرحيات والملاحم حيث تقوم الوحدة العضوية على ترتيب أجزاء الخرافة أو الحكاية ترتيباً احتمالياً أو ضرورياً[2]، أما الشعر الغنائي فما كان "أرسطو" ليقيده بمثل هذا القيد، لأن الشاعر فيه لا ينسى ذاته بإزاء الموضوع، ثم إن الوحدة العضوية لم تتحقق ـ بالمعنى الحرفي في الشعر

---

(١) الوحدة العضوية: هي ترتيب أجزاء الحدث ترتيباً مسلسلاً بحيث يؤدي كلّ جزء إلى الذي يليه، وبحيث لو حذفتَ بيتاً أو قدَّمتَه عن مكانه أو أخَّرتَه لاختل نظام القصيدة.

(٢) النقد الأدبي الحديث د. محمد غنيمي هلال ص٣٩٥.

الغنائي لدى أي شاعر أبداً[1]، اللهم إلا ما ينظمه الشاعر شعراً قصصياً فيجوز هنا أن تتحقق هذه الوحدة،لأن ذلك يقتضيه العرض القصصي.

أضف إلى ذلك أن الوحدة العضوية تختلف باختلاف الأذواق، فلذلك تختلف من وجهة نظر إلى وجهة نظر أخرى، وإذا لاحظنا أن شاعر الجاهلية كان يبدأ قصيدته بالغزل وذكر منازل محبوبته،والبكاء على تلك المنازل والأطلال، ووصف ما يشهده من آثار خَلَّفَها قوم محبوبته حين ظعنوا، ثم ينتقل الشاعر إلى ذكر الراحلة وذكر الصحراء،وما قاسى من جوِّها،وما صادف من وحشها، إلى غير ذلك من الصعوبات التي واجهها،ثم يتخلص من ذلك كلّه إلى وصفٍ أو مدحٍ أو غيرهما، فكان هذا المنهج يتفق مع ظروف حياة الشاعر،وطبيعة معيشته في الصحراء، ويتفق مع حركة وجدانه ومشاعره وأحاسيسه.

وهكذا ترى أن اشتراط الوحدة العضوية أو الموضوعية في القصيدة العربية شرط لا ينبغي أن يكون، فكان عليهم أن يقولوا بالوحدة الفنية أو الشعورية أو النفسية أو الذهنية،لا بالوحدة العضوية التي لا تتناسب مع الشعر الغنائي فلا شك أن اشتراط الوحدة العضوية أو الموضوعية في الشعر الغنائي يكون ظلماً وتجنياً على الشعر والشعراء، ثم إنه تَحَكُّمٌ لا دليل عليه.

ويرى أستاذنا الدكتور عبد السلام سرحان أن الحديث عن الوحدة العضوية في القصيدة العربية مجرد خلط، وسوء فهم من النقاد المقلدين تقليداً أعمى للمناهج الأجنبية، أو الذين لم يفهموا كتاب أرسطو في الشعر، أو غفلوا عن أن الجزء المأثور عن الشعر لأرسطو إنما هو عن الشعر القصصي والمسرحي فقط، لأنهما النوعان المحتاجان حقيقة للوحدة العضوية، لأنهما لا يقومان بدونها أبداً، أما الشعر الغنائي فلم يؤثر عن أرسطو كتابةٌ في شأنه لأنه لم يكتب عنه أصلاً، أو لأن ما كتبه عنه ضاع واندثر، ومن هنا يكون الحديث عن اشتراط تلك الوحدة في الشعر العربي مجرد خلط وخبط وكلام جِدٍّ جزافٍ.

على أن الحقيقة الناصعة بعد دراسة الشعر العربي تقرر دون مواربة أن القصيدة العربية بكلّ صورها المدحية أو الهجائية أو الرثائية أو الوصفية أو سواها قائمةٌ على

---

(١) قضايا النقد الأدبي الحديث د. محمد السعدي فرهود ص١١٦ ط أولى سنة ١٩٦٨م.

موضوع واحد لا تتعداه،وما قد يبدو على السفح أو السطح من تعدد الموضوعات خطل في الرأي وسوء في الفهم ـ لأن الشاعر يمدح أو يقدح أو يرثي أو يصف فيصب كلماته وعباراته في هذا الإطار الذي يسمونه بيت القصيد،أما الحواشي الابتدائية أو الانتهائية أو التي في الثنايا فأحاديث هامشية يقصد منها التفخيم أو التضخيم للمعنى المراد من القصيدة أساساً، فهي أمور وسائل لا موضوعات أصائل.

وعلى هذا لا نرى معنى لوضع القصيدة العربية موضع الاتهام من هذه الزاوية، ولا حاجة للدفاع عنها بأن فيها وحدة فنية تساوي الوحدة الموضوعية. ولو أن السيد أرسطو كتب عن الشعر الغنائي لما وجدنا هذه الأحاديث العشوائية التي أملتها الروح التقليدية التي أبت إلا محاولة هدم الصرح الأدبي العربي ورميه بكلّ منقصة تبعاً لانهدام الصرح الثقافي والصرح السياسي للعرب في العصر الحديث الذي طمس الاستعمار معالمه، وحاول أذنابه من أعداء العرب والإسلام أن يأتوا عليه من القواعد(١).

وواضح جداً أن هذا الرأي يمثل حقيقة واقعة ويصور أمراً ثابتاً.

لأن الحملات الاستعمارية والاستشراقية والتبشيرية على الأدب العربي عامّة والشعر خاصّة حاولت اختراع المعايب، واختلاق المثالب، والطعن بكلّ باطل في العرب وآدابهم وأشعارهم.

وكتاب أرسطو صريح في الشعر القصصي والمسرحي فلا معنى للدخول مع هذه الافتراضات أو الادعاءات الكاذبة في جدلٍ عقيم.

ولهذا أعلن تأييدي لهذا الرأي وموافقتي عليه.

موقف الإسلام من الشعر:

ولما كانت هذه الرسالة عن أشعار هُذَيل، والمعروف أن شعراء هُذَيل فيهم كثير من الشعراء المخضرمين، فإني رأيت لزاماً عليَّ أن أتعرض لهذه القضية النقدية وهي موقف الإسلام من الشعر،فما كان لي أن أُعفي نفسي من التعرّض لهذه القضية وتوضيح موقف الإسلام منها.

---

(١) محاضرات في الأدب العربي بقسم الدراسات العليا في كلية اللغة العربية.

كان للإسلام موقف جليل من الشعر الجاهلي، إذ أنكر بعضه وشجع البعض الآخر، فقد أنكر ذلك الشعر الذي ينافي الأخلاق الكريمة، والمثل العليا كالغزل الفاحش، والمجون الخليع، والهجاء المقذع، وكانت رسالة الشعر قبل مبعث الرسول ﷺ قد انحرفت[1] في بعض أمرها عن الوضع الكريم الذي يليق بالإنسانية المهذبة العاقلة، والخلق القويم الذي تقوم عليه الحياة ويستقيم به المجتمع، فكثيراً ما كان يصف المرأة أقبح وصف، مما يؤدي إلى هَتْكِ الحرمات وكشف الأستار، ثم ما يثيره من عصبيّة وحميّة جاهليّة، مما يبعث على التقاطع والتدابر والتنابذ، ومما يحرض على الاقتتال والتناحر بين الناس، فكان بهذا الوضع يعتبر من معاول الهدم وأسباب الفرقة التي منيت بها الحياة العربية في الجاهلية.

على أن الإسلام لم يُهَجِّن من الشعر إلا ما يحمله من المعاني التي لا تتفق مع جلاله،ولا تتناسب مع وقاره وكماله، فقد مضى يشجع الشعر الذي يدعو إلى الفضائل الإنسانية والأخلاق المدنية والمبادئ الدينية، والذي يحثّ على الطموح وأداء الواجب وحبّ الجماعة،والتضحية في سبيل الأمة،وروي عن النبي ﷺ أنه قال: "إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحقّ منه فهو حسن،وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه" وقال صلوات الله عليه: "إنما الشعر كلام،فمن الكلام خبيث وطيب"[2].

وكان الرسول ﷺ ينصت للشعر ويستمع إلى الشعراء ويقول:

"إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكماً، وقيل: "لحكمة"[3] وكان ﷺ أفصح العرب يتذوق الكلام البليغ ويخوض في الشعر مع الوافدين، وقد أعجب بشعر النابعة الجَعديِّ في قوله:

ولا خيرَ في حِلْمٍ إذا لم تَكُنْ له ... بوادر تحمي صَفْوَهُ أن يُكَدَّرَا

ولا خيرَ في جهلٍ إذا لم يكن له ... حليمٌ إذا ما أوردَ الجهلَ أَصْدَرَا[4]

---

(١) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام د. المسلوت ص٣٧١.

(٢) العمدة لابن رشيق جـ ١ ص٢٧.

(٣) المرجع السابق جـ ١ ص٢٧.

(٤) معالم النقد الأدبي للدكتور عبد الرحمن عثمان ص١٠٣.

فقال له ﷺ : "لا يفضض الله فاك" . وكذلك إعجابه صلوات الله عليه بشعر الخنساء واستنشاده لها قائلاً : "هيه يا خُناس" ثم قصة كعب بن زهير المشهورة ومدحه للرسول ﷺ بقصيدته : "بانت سعاد" وما كان من إعجابه ﷺ بها حتى عفا عنه ومنحه بردته الشريفة .

وكان الرسول ﷺ قد جَنَّدَ الشعراء إلى جانب السيوف في غزواته، وجعل من الشعر سلاحاً ماضياً ذا خطر ضد خصومه وأعدائه من مشركي قريش، فأَمَرَ الشعراء بهجائهم،ورأى أَنَّ ذلك أشد عليهم من وقع السهام في غَلَسِ الظلام، وقد روي أنه صلوات الله عليه كان يقول لحسان بن ثابت : "اهْجُهُم - يعني قريشاً - فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في غَلَسِ الظلام، اهْجُهُم ومعك جبريل روح القدس وَالْقَ أبا بكر يعلمكَ تلك الهَنَات"(١) .

إلا أن كثيراً من العوام، والذين لا يعرفون وجوه الكلام، يعتقدون أن الإسلام صرف الناس عن الشعر حينذاك مستدلين بقوله تعالى : ﴿ **والشعراءُ يَتَّبِعُهُمُ الغاوونَ ألم ترَ أنَّهم في كلِّ وادٍ يَهِيمونَ وأنَّهم يقولون مالا يَفعلونَ** ﴾ .[الشعراء : ٢٢٤-٢٢٦] ولا شك أن هذا خطأ لأنَّ المقصود بهذه الآيات الكريمة هم شعراء المشركين، الذين تناولوا رسول الله ﷺ بالهجاء، فأما مَن سواهم من المؤمنين فغير داخلين في الحكم بدليل الاستثناء بعد الآيات الكريمة، وفي هذا يقول ابن رشيق : "فأما احتجاج مَن لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى : ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنَّهم في كلِّ وادٍ يهيمون ،وأنهم يقولون مالا يفعلون** ﴾ فهو غلط وسوء تأول، لأن المقصودين بهذا النصّ شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله ﷺ بالهجاء ومسُّوه بالأذى، فأما مَن سواهم من المؤمنين فغير داخل في شيء من ذلك، ألا تسمع كيف استثناهم الله عزَّ وجلَّ ونبَّه عليهم فقال : ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعدِ ما ظُلموا** ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] يريد شعراء النبي ﷺ الذين ينتصرون له،ويجيبون المشركين عنه، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة . وقد قال فيهم النبي ﷺ : "هؤلاء النفر أشدّ على قريشٍ من نضح النبل" وقال لحسان بن ثابت : "اهْجُهم - يعني قريشاً - فوالله لهجاؤك عليهم أشدّ من وقع السهام في غَلَسِ

---

(١) العمدة لابن رشيق ١ / ٣١ .

الظلام، اهْجُهم ومعك جبريل روح القدس، وَالْقَ أبا بكر يعلمك تلك الهَنَات" فلو أن الشعر حرام أو مكروه ما اتخذ النبيُّ ﷺ شعراء يثيبهم على الشعر ويأمرهم بعمله، ويسمعه منهم"(١).

فمن الواضح أن القرآن الكريم إنما يَهْجُم شعراء المشركين الذين كانوا يتناولون الرسول ﷺ بالهجاء، ويثبطون من دعوته. فالإسلام لم يهجم الشعر من حيث كونه شعراً، وإنما هجم شعراً بعينه كان يُؤْذي الله ورسوله والمؤمنين. وكان التهاجي قد كَثُر بين المسلمين والمشركين، وكان ﷺ يَحُثُّ الشعراء على الإكثار من شعر الهجوم والدفاع، ولذلك ظهر أثر ذلك واضحاً في توجيه الأدب وفي استنهاض همم الشعراء وتشجيعهم للدفاع عن العقيدة الإسلامية، ودعم الجانب الخلقي الذي رسمه القرآن الكريم.

فالحقّ أن الإسلام لم يردَّ العرب عن الشعر ونظمه،بل كان توجيهاً لرسالة الشعر، وتهذيباً للشعراء ليسموا بفنهم الرفيع إلى ميادين الحق والخير، والعدل والحرية، وحقاً ما يقوله الدكتور شوقي ضيف: "ومن الظلم للإسلام أن يقال: إنه كَفَّ العرب عن الشعر ووقف نشاطه، فقد كان ينشد على كل لسان، وساعدت الأحداث على ازدهاره لا على خموله، سواء في معركة الإسلام مع الوثنيين والمرتدين، أو في الفتوح أو في معركة عليّ مع خصومه في العراق. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن الإسلام أذكى جذوته وأشعلها إشعالاً، فإن أحداثه حَلَّتْ من عُقَد الألسنة،وأَنْطقت بالشعر كثيرين لم يكونوا ينطقونه، فإذا بنا نجد مكة التي لم تُعْرَفْ في الجاهلية بشعر كثير يَكثُر شعراؤها وإذا بنا إزاء عشرات من الشعراء في الفتوح لم يشتهروا بالشعر ونظمه قبلها، وهم يسمّون جميعاً مخضرمين من الخضرمة وهي الاختلاط، لأنهم خلطوا في حياتهم بين الجاهلية والإسلام فعاشوا في العصرين معاً"(٢).

وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم، يخوضون مع الوفود التي كانت تفد على المدينة في الشعر، ويشتركون في المفاضلة بين الشعراء، فأبو بكر رضي الله عنه يقدم النابغة ويقول: هو أحسنهم شعراً،وأعذبهم بحراً،وأبعدهم قعراً، وسبق أن ذكرتُ أنه كان من علماء الأنساب والأخبار، وهذا يقتضي حفظ الكثير من الأشعار،

---

(١) العمدة لابن رشيق جـ ١ ص٣١.

(٢) العصر الإسلامي د. شوقي ضيف ص٤٦.

وأما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكان ذواقة للشعر، وكان من أنقد أهل زمانه وأنفذهم فيه معرفة[1]، وله في ذلك حكايات كثيرة معروفة.

وهكذا نرى أن الإسلام شجع الشعر ودعمه، ووجَّهَه، وكان من تأثير الإسلام في الشعر أن اتجه الشعر اتجاهاً جديداً، يعبر عن الحياة الجديدة، وقد ظهر أثر القرآن الكريم في تهذيب أسلوب الشعر وألفاظه، ثم في البعد عن الحوشية، والغرابة، وطبعه بطابع القوة والروعة، مع العذوبة والسلاسة، وقد تأثر الشعر ببلاغة القرآن في نظمه وصوره وتشبيهاته. كما أثَّرَ القرآن الكريم كذلك في عقلية الشعراء وتفكيرهم ومعانيهم وأخيلتهم.

---

(١) العمدة لابن رشيق جـ ١ ص٣٣.